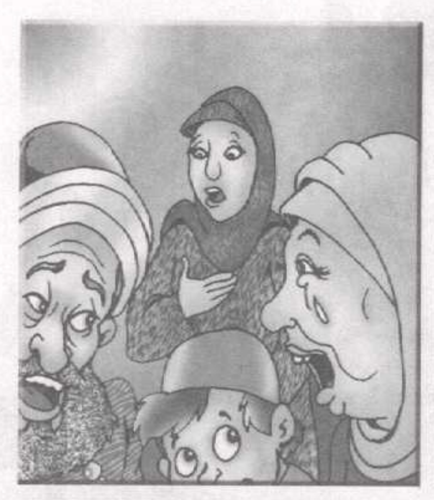
من حكايات زمان

الشيخ بلبل









علي ماهر عيد
رسوم: عبد الرحمن بكر

دار الروضة
للنشر والتوزيع

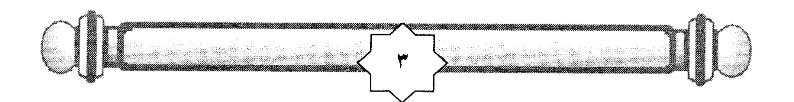




Dar El-Rawdah.
2Darb El-Atrrak. El-Azhar

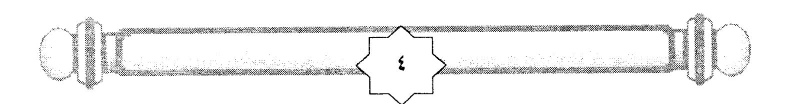
أيام مولد النبى، كنت أذهب مع الأطفال بعد المغرب إلى ساحة المسجد الكبير فأرى باعة حلوى المولد المصنوعة على هيئة عروس المولد، والفارس راكب الحصان وبائع العرقسوس، وبائع الفول المدمس، والعمدة راكب حماره.

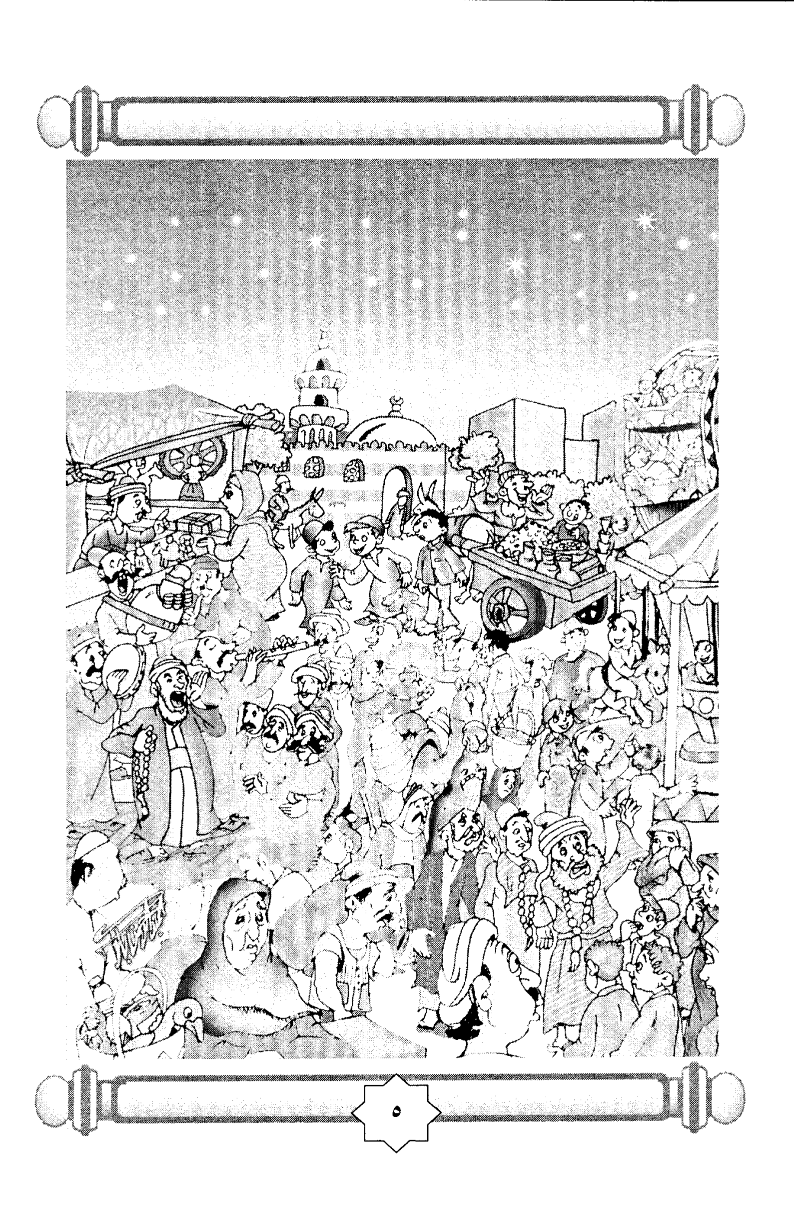
كان هذا النوع من الحلوى يتصدر عرض البيع، ويأتى بعده الفول السودانى والحمص المجوهر، وحلوى السمسمية والحمصية، وكان الباعة يستخدمون فوانيس كبيرة وكلوبات فتتحول ساحة الجامع الكبير إلى معرض جميل،



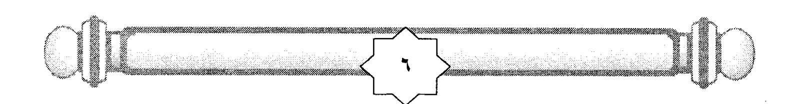
ونلعب نحن الأطفال فى الفترة ما بين صلاة المغرب وصلاة العشاء لأنه بعد ذلك يأتى الرجال والنساء، وتمتلىء الساحة بالفرق الصوفية والمنشدين.

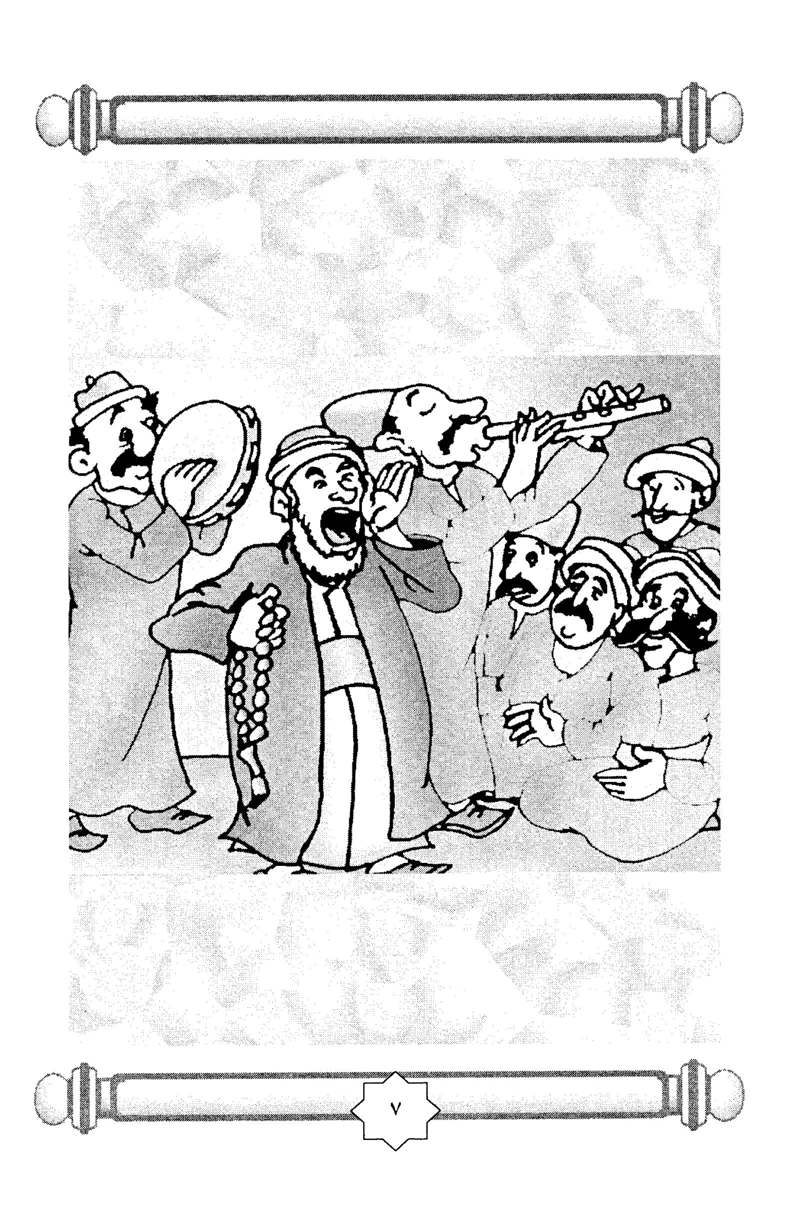
وكان أهم المنشدين عبد العظيم الحلوانى وهو متخصص فى حكى السيرة النبوية، كانت نبرات صوته جميلة ورخيمة، لكنه كان ينشد بصوت رتيب ذو نغمة واحدة، ويقف ثابتاً وهو ينشد كأنه تمثال، ويمسك فى يده مسبحة طويلة يعد فى حباتها طوال الليل..





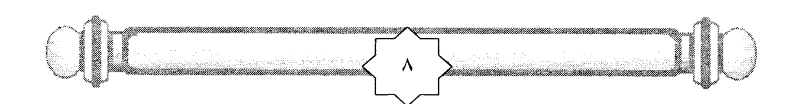
أما المنشد الثاني فهو الشيخ بلبل، وكان هذا لقبه أما اسمه الحقيقي هو "شتيوى" وهو رجل عجيب، لم يكن صوته عذباً مثل الشيخ عبد العظيم، وكان يحكى حكاية شعبية عن فتاة اسمها الشيخة صالحة، وما أن يبدأ الشيخ بلبل فى سرد حكايته بالشعر الشعبى حتى نلتف نحن الأطفال حوله، وكانت النساء تزاحمنا، فجاذبية الرجل وهو يسرد حكايته جاذبية قوية، وكان يتقمص شخصياتها ويلون صوته فيخفضه إلى حد الهمس، وهو يقول:





وهربت صابحة من أخيها الجبان، فتمصمص النساء بـأصوات أسـى، ويسـتمر الشـيخ بلبـل فـى الحكى قائلا:

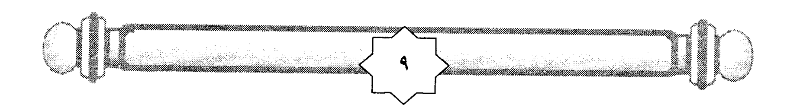
أخـو صابحـة استولى علـى ميراثـها، وأسـاء معاملتـها، وأراد تزويجها مـن عجـوز فـإن يمتلـك عشر فدادين، هربـت صابحـة لكـن حـافظت علـى شرفها، وصلت بلد غريبة، وأعدت لنفسـها كوخـا على شط الترعة، وزرعت الشط بنباتات طبية، ولا أحد رأى وجهها وكل من رآها حلـف إنـها كـانت تصلى أو تقرأ القرآن أو تدعو الرحمـن بالرأفـة فـى



شأنها، وتبدأ دموع النساء تسح لأن كل منهن ترى في نفسها صابحة.

وقال الشيخ بلبل: اشتهرت البنت الطيبة بلقب الشيخة صالحة التي تعالج كل من يقصدها، واشتهرت بأن كل من يقصدها يشفو بإرادة الله، ولم تسأل أحد شيئا، والجميع يرمون لها النقود ويحضرون لها الطعام لأنها ترفض أن تسأل أحدا غير الله جل جلاله.

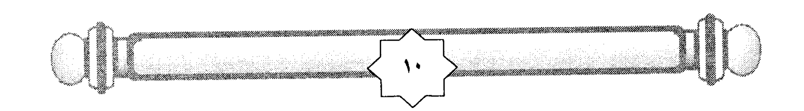
ثم يرتفع صوت الشيخ بلبل قائلا: وربك يمهل ولا يهمل.

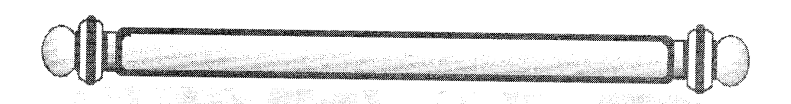


فقد دارت الدائرة على أخو البنية، وركب المرض والدين، وباع كل ما يملك ولم يبرأ من المرض.. فتعلق امرأة متأثرة: اللى ييجى ع الولايا ما يربحش.

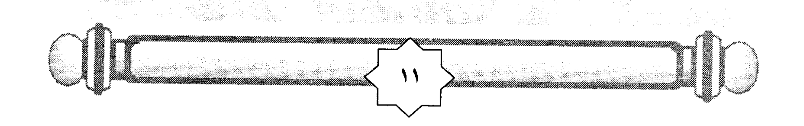
وتسمع زوجة أخيها بمعجزات الشيخة صالحة، فتذهب إليها، وعرفتها الشيخة صالحة، وبكت الشيخة عندما سمعت ما حدث لأخيها.

فتهمس امرأة أخرى: بنت أصيلة. وتذهب الشيخة صالحة لأخيها، ولا تكشف عن نفسها، وتستمر فى علاجه، ويأذن الله بالشفاء له.





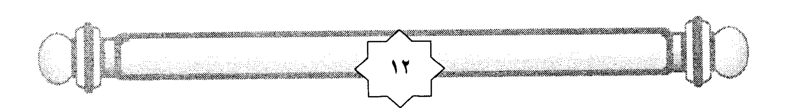


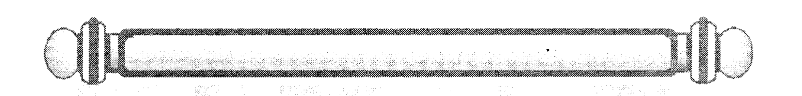


فيقول أخوها لها وهو دامع العينين: يا صبية أنا أشم رائحة أختى صابحة التى ظلمتها بجهلى.

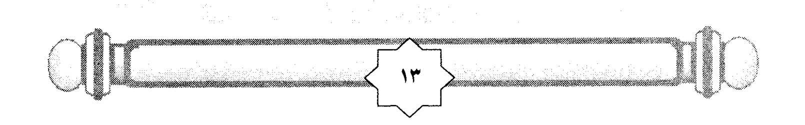
وتجيبه صابحة: أنا أختك وأنت أخى والدم عمره ما يبقى ماء.

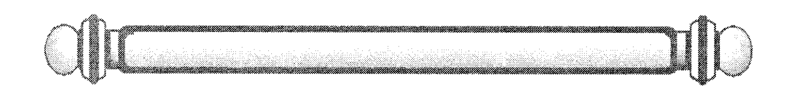
وهنا يتصاعد بكاء النساء لأن الشيخ بلبل لعب على أوتار الرحمة فى القلوب ويكمل الشيخ بلبل حكايته الشعبية فيقول: الشيخة صالحة قالت لأخيها: قم يا أخى شوف زرعك، فأنا اشتريت كل الفدادين التى بعتها أو رهنتها.





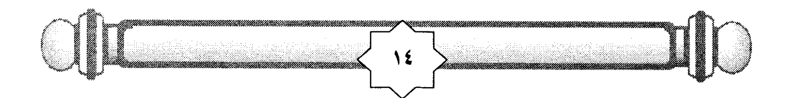






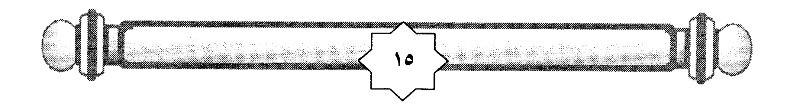
وعندما تنتـــهى الحكايــة، يمـر الشـيخ بلبـل بالبندير يجمع النقدية، وكانت النساء تجــزل لــه العطاء وفى أعينـهن دموع، وفى قلوبهن بـهجـة.

ذهب الشيخ عبد العظيــم الحلوانــى، ورجــال الصوفية للعمدة، وقالوا لـه: ابعد هذا الولد الفاسـد الملقب بالشيخ بلبل، وما هو بشــيخ، واسمــه ليـس بلبلا وهو يحكى حكاية فاســدة مثلــه، ولا يحكــى السيرة النبوية، ويجمع النساء والأطفال حوله.



فأمر العمدة بإبعاد الشيخ بلبل، وكانت المفاجأة أن ساحة الجامع الكبير أصبحت خالية تماما، لأن الجميع ذهبوا إلى مكان الشيخ بلبل عند السكة الحديد حتى باعة الحلوىوالفول السودانى والحمص المجوهر..

فذهب الشيخ عبد العظيم ورجال الصوفية للعمدة وطالبوه بإعادة الشيخ بلبل على أن ينتهى من حكايته مبكرا، لأن هذا البلبل هو الذى يجمع الناس.



وعاد الشيخ بلبل إلى ساحة الجامع مرة أخرى، وامتلأت الساحة بالبشر..

ثم حدث أن اختفى الشيخ بلبل من الساحة ومن البلدة كلها، ولكنه لم يختف من ذاكرتى أبدا، وكنت أسأل عن سر جاذبية الرجل، وأدركت أن هذا الرجل كان يؤدى عمله بحماس وحب فأصبح عمله ذا طعم مميز وناجح..

وهنا أدرك الجد النهاية

وقال: انتهت الحكاية.

مطابع الشرطة ت: ٥٩٠٣٠٣٠

